﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: 15 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مانِعُ حقِّ الله تعالى في الزَّكاة أهلٌ للتَّعْنيفِ والتَّأديبِ

لمّا أخبر الله ﷻ فيما سبق أنَّ الكافر المجرم المستهزئ بالدّين سَيَتَمَنّى يوم القيامةِ حينَ يُباشِرُ رُؤيةَ العذابِ ويُقاسيهِ أنْ لَو يستطيعُ افتداءَ نفسِه بكُلِّ غالٍ ونفيسٍ مِن ولدٍ وزوجَةٍ وفَصيلٍ ومَن في الأرض جميعًا؛ أخبر بأنَّ ذلك المكذِّب سَيُزجَرُ حينئذٍ عَنِ التَّطلُّع إلى ذلك الطّموح الواهم ويعنَّف، ويُذاق العذاب بإعراضِه عن الحقِّ في الدُّنيا، وتولّيه إلى الكفر مُدابرًا الإيمانَ، وبِجَمْعِه المالَ على وجه الاكْتِناز، ومنْعِه زكاتَه عن مستحقّيها مِن عبادِ الله تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَظَىٰ﴾: اللَّظَى: لهَبُ النّار أو اللهبُ الخالصُ[1]، وتَلظّيها والتِظاؤها: التهابها. والنّار تتلظَّى: تتوهّج وتتوقّد، وتوهُّجها: بلوغ الحدّة أقصاها، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [اللّيل: 14]. اللَّظُّ: الحركة الخفيفة مع الحدَّة، كما يتمثل ذلك في لَظْلَظَة الحيَّةِ رأسَها، وفي لهبِ النّار وشُعلتها الّتي تتوهَّج وتتوقَّد[2]. و(لظى) من أسماءِ جَهَنَّمَ، سُمّيَتْ بذلك؛ لكونِها أشَدَّ النّيرانِ[3]، وهو المرادُ في قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[4].

2) ﴿نَزَّاعَةً﴾: (نزع) تدلُّ اشتقاقاتُها على قَلْعِ الشَّيءِ[5]، ومِنْهُ:

(1) الراغب، المفردات: (لظى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لظى).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لظى).
(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (لظا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).

المِنْزعة؛ وهي خشبَةٌ عريضَةٌ نحوَ المِلْعَقة، تكون مع مُشْتارِ العسَلِ ينزِع بها النَّحل اللَّواصق بالشَّهْد. والنَّزَعَتانِ: ما يَنحسر عنه الشَّعر من أعلى الجَبينَين حتّى يُصْعِد في الرَّأس، ونَزَع الشَّيء وانتزعَهُ: اقتلعَهُ، وانتزع الرُّمحَ: اقْتلعه.

ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾؛ لكونِها تَقْلَعُ الجِلْدَ والأطرافَ، ومنه: الجذبُ إخراجًا، كما في قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف: 108]، أو الجَذْبُ إهلاكًا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: 69]، أو إقامةً ونَصْبًا، كالذي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [القصص: 75]، أو تجريدًا، كما في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: 27]. وقد يكون الجذْبُ معنويًّا مِن باب التَّجريد، كما في قوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، ومنه: نَزَع البعير إلى وطنه والإنسانُ إلى أهله: حَنَّ واشتاقَ، كأنَّما نفسُه تنقَلِعُ ذاهبةً وراء ما تشتاقه[1].

3) ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: الشَّوَى - بالفتح مقصورًا -: أطرافُ الشَّيء، وحواشيه الظّاهرة المنتشرة حولَهُ، كاليدينِ بالنِّسبة للبَدَن، قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، ومنه الشّواية - مثلثةَ الشّين -: الشَّيءُ الصَّغير مِن الشَّيء الكبير، كالقطعة مِن الشّاة، وبقيةِ قومٍ أو مالٍ هَلَك، كالشَّويَّة، ومن الإبل والغنم: رَديُّها، ومن الخُبْز: القُرْصُ منه.

وشَوَيْتُ اللَّحم فانْشَوى: وضعتُه على النّار فأحرقَتْ شَواه؛ أي: ظاهرَهُ، وحاشيَتَهُ فقط، كما هي الحالُ عند الشَّيّ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۢ﴾ [الكهف: 29]، وأشْوَى القمحُ: أفْرَكَ وصَلَح أن يُشْوَى[2].

4) ﴿تَدْعُواْ﴾ (دعو) تدور تصريفاتُها على مَيْلِ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[3]، ومِنه: داعيَةُ اللَّبَن؛ وهو ما يُتْرَك في الضَّرْع ليدعوَ ما بعده، والدَّعْوة - بالفتح -: الوليمَةُ. وتداعى القومُ: دعا بعضُهم بعضًا حتّى يجتَمعوا، ودعاهُ إلى الأمير: ساقَهُ، وماذا دعاكَ إلى هذا الأمر: ما الّذي جَرّك إليه. والدَّعوة: جَذْبُ الشَّيء أو محاولة ضَمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذب اللَّبَن إلى حيّزه أو حيّز الحالب، وجذبِ النّاس إلى الوليمة والاجتماعِ، والسّوْق إلى الأمير.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نزع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

وهذا المعنى بارزٌ في قوله تعالى عن جهنَّم: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وبه يتَّضح قولهم: تداعَت الإبل: تَحطَّمَتْ هُزالًا؛ فكادت تسقط مُكَوَّمةً على الأرض، كأنَّما يجذِبُ بعضُها بعضًا، وتداعى الحائطُ: تكسَّر وآذَنَ بانهدامٍ، وداعيناها عليهم: هَدَمْناها، وجعلناها تَسْقُط، ودعاه الله بما يَكْرَهُ: أنزَلَهُ به[1]. فمعنى ﴿تَدۡعُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تَجْذِبُهُم إليها وتحطُّهم على وجهِ الإهلاك.

5) ﴿أَدۡبَرَ﴾: (دبر) تدورُ اشتقاقاتُها على آخرِ الشَّيْءِ وخَلْفِهِ، وهو ضدُّ قُبُلِه[2]. ومِنْهُ: دُبُرُ الشّيء: خلاف القُبُل، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه: أدْبار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، وقال: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامهم وخلفهم، وقال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: 45]، والدّابر يقال للمُتَأخّر، وللتّابع، إمّا باعتبار المكان، أو باعتبار الزَّمان، أو باعتبار المَرْتَبَة.

وأدبرَ: أعرض وولّى دُبُرَه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ [المدّثر: 23]، وقال: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: "لاَ تَباغَضوا، ولاَ تَحاسَدوا، ولاَ تَدابَروا، وكونوا عِبادَ الله إخْوانًا"[3]، يُقال: تدابر القوم؛ إذا ولّى بعضُهم عَن بعض، والدِّبار: مصدرُ دابَرْتُه؛ أي: عاديتُه مِن خَلْفِه[4].

6) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى القُرْبِ[5]، ومنه: الوَلْيُ؛ وهو القُربُ والدُّنوُّ. يقال: تباعد بعد ولْيٍ. وأوليتُه الشَّيءَ فوَليَهُ. وكذلك وليَ الوالي البلدَ، ووَليَ الرَّجلُ البَيْعَ، وِلايَةً فيهما. وأوْلَيْتُهُ معروفًا. وتَوَلَّى العملَ؛ أي: تقلّد. وتَوَلَّى عنه: أعرض. وولَّى هاربا: أدبَرَ. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148] أي: مستقبِلُها بوجهه[6]. ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرضَ عن الطّاعةِ[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (6065)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2558).
(4) الراغب، المفردات: (دبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(6) الجوهري، الصحاح: (ولي).
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 213.

7) ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾: (وعي) تدور اشتقاقاتُها على ضَمِّ الشَّيء[1]، يُقال: وعى الأمْرَ؛ إذا أدركه على حقيقته، ووعَى الحديثَ؛ أي: حفِظَهُ وقَبِلَهُ وفَهِمَهُ وتدبرَّه، وقال الله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة: 12]، وأوعى يوعي: جعله في الوعاءِ. وقول الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ [الانشقاق: 22 - 23]: أي: بما في قلوبهم[2]. ومعنى ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: جعلَهُ في وعاءٍ وكَنَزَهُ، ولَم يُؤَدِّ زكاتَهُ وحُقوقَهُ الواجبةَ فيه، وتشاغل به عن الدّين[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلّا أيُّها المجرم، ليس الأمر كما ودِدتَ وتمنَّيتَ من افتداء نفسِك من العذاب بكلِّ غالٍ ونفيسٍ من أهلك وغيرهم، وإنَّما الّذي في انتظارك هو النّار الّتي هي أشدُّ ما تكون اشتعالًا، والّتي مِن صفاتها أنَّها قَلّاعة لِجلدة الرّأس وأطراف البدنِ، كاليد والرِّجل، ثُمَّ تعودُ هذه الجلدة والأطراف كما كانت[4]، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النّساء: 56].

جَمْع المال وحِفْظُه ليس مذمومًا بإطلاقٍ، بل اكتنازُه ومنعُ حقِّ الله تعالى فيهِ هو المذمومُ

وتدعو تلك النّارُ إليها أبناءَها الّذين خلَقَهُم الله تعالى لها، وقَدَّر لهم أنَّهم في الدّار الدُّنيا يعملون عملَها؛ فتدعوهم يومَ القيامة بِلسانٍ طَلْق ذَلِقٍ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهم مِن بين أهل المحشر كما يلتَقِطُ الطَّير الحَبّ[5]، وتَلْتَهِمُ مَن جَمَع المال فجعله في وعاءٍ، وحَفِظَهُ وكَنَزَه ولم يُؤَدِّ حقَّ الله تعالى فيه، فليس الجمعُ وحدَه معيبًا، وإنَّما المعيبُ الجمعُ مَعَ عدم إخراجِ حُقوقِ الفقراء والمساكينِ فيهِ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وعى).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 213.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 97.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 225.
(6) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 745.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عمّا قبلهُ:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عن قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾؛ لما بينَهما من شبه كمال الاتِّصالِ، فالجملة الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وكأنَّ سائلا سأل: وهل يُمَكَّنُ وادُّ الافتداءِ من ذلك؟ فيجيء الجواب: "﴿كَلَّآۖ﴾؛ ليس ذلك كذلك، ليس يُنْجيه مِن عذابِ اللّهِ شيءٌ"[1].

أثـرُ الاستئنافِ الـبـيـانيِّ في مُتابعَةِ المُتَلَقّي

دلالةُ ﴿كَلَّآۖ﴾ في قوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾:

﴿كَلَّآۖ﴾ مَجْمَعُ الرّوادع والزّواجر الصّوادع[2]، فهي حرفُ "ردعٍ وزجرٍ ونفيٍ، فإنَّه لا نَجاة مِن هذا العذاب، ولا مَفرَّ من أن يقَع بأهله، فلا يدفَعُهُ دافِعٌ من جاهٍ، أو سلطانٍ، أو فدية مِن مالٍ وبنين"[3]، و﴿كَلَّآۖ﴾ حرفٌ يأتي بمعنى (حقًّا)، وبمعنى (لا) النّافية، مع تَضمُّنه لِمعنى الزَّجر والرَّدع، وهو هُنا يحتَمِلُ الأمرين[4]، فهو رَدٌّ للمجرم عن الوَدادَة، وتنبيهٌ على أنَّه لا يَنفعه الافتداء، ولا يُنجيهِ مِنَ العذاب[5].

لا مَفرَّ من وُقوع العذابِ بأهْلِه، فَلا يَدْفَعُه جاهٌ أو سلطانٌ أو فديةٌ

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عمّا قبلهُ:

فُصِل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عن قوله: ﴿كَلَّآۖ﴾؛ لوثاقَةِ الصِّلة المعنويَّة بين الجملتين؛ لأنَّ جملة ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ "تعليلٌ لِنفي النَّجاة عن أصحاب النّار، ورَدُّ أيّ فدية لو كان يملِكُ أحدٌ شيئًا يقدّمه في هذا اليوم. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ فهَل يملِكُ أحدٌ أنْ يفرّ منها؟"[6].

لا يستطيع أحدٌ الإفلاتَ مِنْ نار جَهَنّمَ إذا أوبقَتْهُ أعمالُهُ فيها

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 260.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 315.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ تلويحٌ بهذه النّار الجَهَنَّميَّة في وجه المُجْرِمين. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ وكفى! فهل يستطيع أحد أن يفلت من ﴿لَظَىٰ﴾ إذا أوقعَهُ شؤمُ أعمالِه وكبيرُ ضلالِه فيها؟ كلّا.

وهذا مثلُ قوله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه وقد عرَض نفسَهُ ليُنازِل عَمْرو بنَ عبدِ وُدٍّ يوم الخَنْدَقِ، وقد تَهَيَّبَه المسلمون يومئذ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ لِعليٍّ رضي الله عنه: "إنَّه عمرو"[1]، فقال عليٌّ رضي الله عنه: وأنا عليٌّ[2].

ويجوزُ أن تكون جملةُ ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ فُصلَت عمّا قبلها؛ لكونِها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عمّا أفاده حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ مِن الإبطال[3].

معنى (إنّ) في قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾، وبيانُ مرجِعِ الضَّمير المتَّصل بها:

عِـظَـمُ الـخـبر يقتضي توكيدَه، بغض النّظر عن وجود منكِر

(إنّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ لتوكيدِ المَعْنى التَّعريضيّ المقصود مِن خبرها، والمعنى التَّعريضيُّ هو أنّ ذلك الّذي يَوَدُّ الافتداءَ هو المتوعَّد بـ ﴿لَظَىٰ﴾، لا توكيد الإخبار بأنّ ما يُشاهِدُهُ لَظى؛ إذْ ليسَ ذلك بمحلٍّ التَّردُّد[4]. ويقتضيها ردُّ طمع ودادَته أنْ لو استطاعَ افتداءَ نفسِه بكُلِّ شيء، وزجرُه وتيئيسُه.

كما يقتضيها عظيمُ الخبَرِ وثقلُه، فمِنَ الأخبار ما يُؤَكَّد لذاته، كما قال ابنُ حجر في الفتح: "وَقَدْ يَكونُ التَّأْكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ بِهِ وإنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[5].

والضَّمير المنصوبُ في ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ينصرِفُ إلى (جهَنَّم) بطريق الكنايَةِ اللَّفظيَّة؛ حيثُ لَم يسبِقْ لَها ذِكْرٌ، وإنَّما تُلْمَح من جملة الافتداء: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾؛ فذِكر العذاب دالٌّ عليها.

(1) أصل الخبر رواهُ الحاكم في المستدرك، برقم: (4329).
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(5) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.

ويجوز أن يكون ضميرًا مُبْهَمًا تَرْجَم عنه الخبَرُ؛ وهو ضميرُ القِصَّة والشَّأن[1]، والمعنى أنَّ قصَّتك وشأنك لَظى[2].

غرَضُ الخَبَرِ في قولِه: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾:

غرضُ الخبَرِ في قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ التَّعريض بأنَّها أُعِدَّتْ له؛ أيْ: أنَّها تُحْرِقُك، وتنزِع شَواكَ. وقد صُرِّح بِما وقع التَّعريض به في قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ أي: تدعوك يا مَن أدبَرَ عن دعوةِ التَّوحيد، وتولّى عنها، ولم يَعْبَأْ إلّا بجَمْعِ المال[3].

الكافِرُ ليسَ جَديرًا بِشَرَفِ الخِطاب الإلهيِّ

ومن لطائفِ إطلاق الخِطاب وصرْفِه عنهُ إهمالُ شأْنِه، وإشعارُهُ ببُعده عن ساحَةِ الخِطاب الإلهيِّ أوّلا، وإفادة عموم الحُكْم ثانيًا؛ أي: أنَّها تَدْعو كلَّ مَن أدبَرَ وتولّى، وجَمَعَ فَأَوْعى، وأنَّ ذلك حُكم إلهيٌّ عامٌّ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿لَظَىٰ﴾، ولطيفةُ تَنْكيرِه:

﴿لَظَىٰ﴾ في أصلِ اللُّغة تدلُّ على اللهبِ الخالص؛ يقال: لَظِيَت النّار، تَلَظَّى لَظًى[4]، وهو هنا "عَلَمٌ منقولٌ من اسم اللهب، جُعِل عَلَمًا لـ (جهنّم)، وألِفُه ألفُ تأنيث، وأصلُه: لظًى بوزن فتًى منوَّنا؛ وهو اسمُ جنسٍ لِلَهَبِ النّار، فنُقِل اسمُ الجنس إلى جعْله عَلَما على واحد مِن جنسه؛ فقُرِن بألف تأنيثٍ تنبيهًا بذلك التَّغيير على نَقْله إلى العَلَميّة. والعربُ قد يُدخلون تغييرا على الاسمِ غيرِ العَلَم إذا نقلوهُ إلى العَلَميَّة، كما سمّوا (شُمس) بضَمِّ الشّين منقولا من (شَمس) بفتحِها[5].

فظاعَةُ العذاب في لظى لا يقومُ لهُ أحَدٌ

وسُمّيَتْ جهنَّم بذلك؛ لأنَّها الّتي تَتَلَظَّى؛ أي: يشتدُّ حَرُّها. أو هوَ اسمُ الدَّرَك الثّامن في جهنَّم[6]؛ فالتَّعبير بـ ﴿لَظَىٰ﴾ عن جهنَّم أو

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.

إحدى طبقاتها وأوْدِيَتِها لَفْتٌ إلى خطورة ألسنَةِ لهَبِها المتأجِّجة؛ فـ "في هذا اللَّفظ تعظيمٌ لأمرها وهَوْلِها"[1].

وتنكيرُ ﴿لَظَىٰ﴾ تهويلٌ لأمْرِها، ومزيدُ تحذيرٍ مِن خطرها، وأنَّها نارٌ عظيمةٌ ملتهبَةٌ لا يقومُ لها أحَدٌ.

موقع قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾:

﴿نَزَّاعَةً﴾ في موضعِ نصبٍ على أنَّها حالٌ مِن ﴿لَظَىٰ﴾ بما دلَّت عليهِ من معنى الفِعْلِ، أي: تتَلظّى حالَ كونِها نزّاعةً للشّوى. وهذا مَكْمَنُ التَّهديد، لا مجرَّد اشْتِعالِها في ذاته، فمحلُّ الخطورةِ انتزاعُها للشَّوَى.

انـتـزاعُ لـظـى أطـرافَ الإنسانِ وجِلْدَهُ

ويجوزُ أن تكون ﴿نَزَّاعَةً﴾ منصوبةً على الاختصاص؛ لإرادَةِ التَّهويلِ والتَّفخيم[2].

دلالة التَّعبير بالنَّزع، ولطيفةُ صَوْغِ ﴿نَزَّاعَةً﴾ على وزن (فعّالة):

في صَوْغِ ﴿نَزَّاعَةً﴾ على زِنَةِ المبالغَةِ إيماءٌ إلى شدَّة النَّزع، وذلك دالٌّ على انْعِدام الرِّفق بالمنزوعِ أطرافُه، وجِلْدُه، بَل يعامَل بالقَسْوَة، ويُؤْخَذُ بشدَّةِ اقتلاع ما لا يَقْتُلُ اقتلاعُه مِن أجزائه.

تـخـلـعُ لَـظـى أطـرافَ المعذَّب؛ فيُـضـبِـح كُـتْـلَـةً مـسـتـسـلِـمـة للعذابِ

وفي قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أوَّل ما تُحدِثه النّار في الكائنِ الحَيِّ يُشوَى بها هو انخلاعُ أطرافِه. وهذا يَعْني أنْ يَفقِدَ المعذَّبُ بالنّار القدرةَ على الحركة؛ إذِ انْفَصَلت عنه رجلاه اللّتان يتحرَّك بهما، كما يفقِدُ القُدرة على الدِّفاع عن نفسه بيَدَيْهِ بعد أن عجَز عن الفرار؛ إذ قَد انخلعت عن جسدِهِ هاتانِ اليدان. وهكذا يُصْبِحُ كتلة مستسلِمة للعذاب، مقيَّدة بقَيْد العَجْز المطلق[3].

وتوحي صيغَةُ المبالغة في ﴿نَزَّاعَةً﴾ باستمرار النَّزع وكثرته اتِّساقًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 367.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 212 - 213.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.

مع قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النّساء: 56].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿نَزَّاعَةً﴾:

القراءاتُ القرآنيّة تُثْري الدّلالاتِ التّركيبيّة

قرأ كلُّ العشرةِ عدا حفصًا عن عاصمٍ: ﴿نَزَّاعَةُ﴾ بالرَّفع على أنَّها خبَرٌ بعد خبر لـ (إنّ) أي: جهنَّم لظى، وأنَّها نزّاعة للشَّوى، أو خبرٌ لـ ﴿لَظَىٰ﴾ إنْ كانت الهاء ضميرَ القِصَّة، أو صفةٌ له إنْ أُريد اللهبُ؛ أي: إنَّ لظى هي النّزّاعة -، والتّأنيثُ في (نزّاعة)؛ لكونه في معنى النّار. أو أنَّ ﴿نَزَّاعَةُ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ، والتَّقدير: هي نزّاعةٌ؛ على إرادَةِ التَّهويل.

وقرأ حفصٌ ﴿نَزَّاعَةَ﴾ بالنَّصب على الحال المؤكِّدة، أو على أنَّها مُتَلَظّيَةٌ نزّاعة، أو على الاختصاص للتَّهويل[1]، وذكر أبو عليّ الفارسيُّ أنَّ حمله على الحال بعيدٌ؛ إذ ليسَ في الكلام ما يَعْمَلُ في الحالِ، وقيل: العاملُ فيها ما دلَّ عليه الكلامُ مِن معنى التَّلَظّي، أو هوَ منصوبٌ على الاختصاصِ[2].

ويتعيَّن على قراءة النَّصب على الحال أنَّ الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ ليس ضميرَ قِصَّة، والتَّعريض هو هوَ، وحرفُ (إنَّ) إمّا للتّوكيد متوجّها إلى المعنى التّعريضيِّ، وإمّا لمجرَّد الاهتمام بالجُمْلَةِ الّتي بعده؛ لأنَّ الجُمَلَ المفتَتَحة بضمير الشَّأن من الأخبار المُهْتَمِّ بها[3].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾:

بلوغُ العذاب في الآخرة غايتَهُ في الشِّدَّة والإيلامِ

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ دالَّةٌ على الاختصاصِ، وهي تصوِّرُ أنّ النّار كأنَّها مهيأةٌ مخصَّصةٌ بنَزْعِ الشَّوى، وذلك يقتضي شدَّة النَّزْعِ، وأنَّ أثر النّارِ في الآخرةِ يبلُغُ غايتَهُ في الإيلامِ والتَّعذيب مِنْ أوّل ما تُباشِرُ ظاهِرَ الإنسانِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(2) أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات السبع، ص: 6/ 319.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.

دلالَةُ التَّعبير بـ (الشَّوَى)، ونكتَةُ اخْتِصاصِها بالذّكر، ودلالةُ جَمْعِها:

عـذاب (لظى) لا يبلغ حدّ القتل؛ ليَبْقَى المعـذَّبُ حيًّا يتجدَّد عليه العذابُ

الشَّوَى: جمعُ: شَواةٍ، وهي مِن جوارحِ الإنسانِ ما لم يَكُنْ مَقْتَلًا؛ أي: لا يبلغ إيذاؤه حدَّ القتل؛ وذلك ليَبْقَى المعذَّبُ حيًّا يتجدَّد عليه العذاب ولا يموت، يقالُ: رمَى فَأَشْوَى؛ إذا لم يُصِبْ مَقْتَلًا، فربّما وصَف الواصفُ بذلك جلدةَ الرّأسِ، كما قال الشّاعرُ[1]:

قالت فُتَيْلَةُ ما لَهُ *** قد جُلِّلَتْ شَيْبًا شَواتُهْ

وربّما وصِف بذلك السّاقُ، كقولِهم في صفةِ الفرسِ: عَبْلُ الشَّوَى، نَهْدُ الجُزارَةِ، يعني: بذلك قوائمَه[2]، أو هي جهنّم تَفْري اللَّحم والجِلد عن العَظْم، أو هي جِلدة الرّأس، أو هو العصَب والعقب، أو هو مكارِم وجههِ - أي: محاسنه، أو هو اللَّحم والجِلْدُ الّذي على العظم؛ لأنَّ النّار تشويه[3]، أو العَصَب والعَقِب ولحم السّاقَيْن واليدين[4]، أو (الشَّوَى) الأعضاء الظّاهرة والباطنة[5].

وفي مادَّة (الشَّوَى) إلماحٌ إلى ما تتعرَّض له جلودُهُم وفَرْوات رؤوسِهم من الشَّيِّ والاحتراق، وأنَّ الشَّيَّ يَعُمُّهم، ويشوي المناطقَ الحسّاسة في أبدانِهم.

وصيغَة الجمع (الشَّوَى) توحي بكثرة المعذَّبين، وكثرة شيِّهم وتعذيبهم. فـ "الجمع باعتبار ما لكلِّ أحدٍ من شَوَى"، و"قيل الشَّواةُ: جِلدة الرّأس؛ فالجمعُ باعتبار كثرةِ النّاس"[6].

عِلَّةُ فصل قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ عمّا قبلهُ:

الـتَّراكـيـبُ القرآنيَّة وثيقةُ التَّرابُط المعنويِّ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن قوله: ﴿إِنَّهَا

(1) يُنسب البيت إلى الأعشى، وليس في ديوانه، ويُنظر: الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص: 316.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 261.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: 30/ 643.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.

﴿لَظَىٰ﴾؛ لكونها حالا أخرى من أحوالِ ﴿لَظَىٰ﴾[1]، تُبَيِّن حال النّار وأنّها تدعو إليها مَن أعرض عن الإيمان بالله، وأعطى ظهرَهُ لدعوةِ الحقِّ.

فكأنَّها بِدعوتها تلك إنَّما تستقبِل مَن أقبل عليها، وولَّى وجهَهُ نحوَها حينَ أعرضَ عنِ الإيمان بالله، وكما تَسْتَقْبِلُ مَن أعرض عن الإيمانِ؛ تستقبِل مَن جمع المال وأوعاه؛ أي: وضعَهُ في وعاء، وضَنّ به عن الإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ والإحسانِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بالدُّعاء، ولطيفة صَوْغِه مُضارِعا:

تعدُّد الدّلالاتِ يُثري المَعاني القُرآنيَّة

قَد يكونُ المقصودُ بدُعاء جهنَّم مَن أدبر وتولى أنَّها "تدعوهُم بأسمائهم، فتقول للكافر: يا كافرُ إليّ، وللمُنافِق: يا منافق إليّ، أو أنّ مصيرَ مَن أدبر وتولّى إليها، فكأنّها الدّاعية لهم، ومثله قول الشّاعر[3]:

ولقد هَبَطْنا الواديَيْن فواديًا *** يَدْعو الأنيسَ به العَضيضُ الأبكمُ

والعضيضُ الأبكم: الذُّباب، وهو لا يدعو، وإنَّما طَنينُه يُنَبِّه عليه، فدعا إليه.

أو أنَّ الدّاعي في الآيةِ خزنةُ جهنَّم، وقد أُضيفَ دُعاؤُهم إليها؛ لأنَّهم يدعونَ إليها"[4].

وجائِزٌ أنْ يكونَ الدُّعاء منها على التَّحقيق؛ وهو أن يجعل الله تعالى لها قدرةً على الكلامِ، كما يُنطِقُ جلدَ الإنسانِ، فتقول جَهنَّمُ: إليَّ، إليَّ. وجائزٌ أن يكون هذا على جهةِ التَّمثيل؛ وهو أنَّها لا تدع أحدا يَفِرُّ منها، ويتخلَّص من عذابها، فكأنَّها دَعَتْهُ إلى نفسِها[5].

وفي دعائِها إيّاهم طِباقٌ خفيٌّ؛ لأنَّ الإدبار والتّولّي يُضادّان

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 213.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.
(3) البيت بلا نسبة عند ابن قتيبة في المعاني الكبير: 2/ 603.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 203.

الدّعوة في الجُمْلَةِ؛ إذ الشَّأن أنَّ المدعوَّ يُقْبِل ولا يدبر، فيكون ﴿تَدْعُواْ﴾ مشتقًّا من الدُّعوة - بضمِّ الدّال -، أو أن يُشَبَّه إحضارُ الكفّار عندها بدعوتها إيّاهم للحضور على طريقةِ التَّبعيَّة[1].

وفي التَّعبير عن الفعل بصيغَةِ المضارِع ﴿تَدْعُواْ﴾ استحضارٌ لِصورة جهنَّم وهي تدعو، وتُنادي الكافِرَ، وتكاد تَبْتَلِعُه في أعماقها، وهذا التَّعبير يُحَرِّك الرَّهبة في النُّفوس، فيكون أدْعى لإيمانهم وانقيادِهم للشَّرع المنزَّل. وفي صيغةِ المضارع أيضًا إيحاءٌ بأنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ تدعوهُم الآن، وتتطَلَّع إلى ابْتِلاعِهم في دركاتِها في كلِّ آن؛ كنايةً عَن فظاعَةِ ما ارتكَبوا مِن آثامٍ.

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الفِعْلِ ﴿تَدْعُواْ﴾:

مُكافَأةُ اسْتِهْزائِهِم باسْتِهْزاءٍ

الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: جهنَّم تدعو لدُخولِها والاصْطِلاء بِحَرِّها[2]؛ مُسْتَعْمَلٌ في الإحضار، كأنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ "تدعوهم فتُحضِرهم، ونحوه قول ذي الرّمّة[3]:

أمْسَى بِوَهْبِينَ مجتازًا لِمَرْتَعِهِ *** مِنْ ذي الفوارِسِ تَدْعو أنْفَهُ الرِّبَبُ[4]

وقال بعضُ أهل العلم: معناه أنَّها تقول لَهُم: إليَّ إليّ يا كافرُ يا منافِقُ. فَتَدْعو المنافقين والكافرين بِلِسانٍ فصيح، ثُمَّ تلتقطُهم التقاطَ الحَبّ.

وقال بعض العلماء معنى تَدعو: تُهلِك؛ من قول العرب: دعاك اللّهُ؛ أي: أهلكك. قال الشّاعر[5]:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 97.

(3) ديوان ذي الرمة، ص: 16.

(4) وهبين: اسم موضع، وكذلك ذو الفوارس، والرِّبَب - بموحَّدتين -: جمع رِبة، وهي أول ما ينبت من الكلأ، والدعاء: الطلب، وهو هنا مجاز عن التسبّب في الأمر، لأنّ النبات الصغير سببٌ في وصول أنفه للأرض ليرعاه، ويجوز أن يكون الدعاء من باب الاستعارة، شُبّه الرّبَب بالداعي، وحذف المشبّه به، وأخذ شيئا من خصائصه، ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 214.

(5) البيت بلا نسبةٍ في أساس البلاغة للزمخشري: 1/ 288، ولفظهُ فيه: "إذا نام العيون" بدل: "إذا دخل الظلام".

دَعاكَ اللّهُ من رجلٍ بأفعَى *** إذا دخلَ الظلامُ سَرَتْ عليكا[1]

ومن دعائها إيّاهم تَمَكُّنُها من عذابِهم[2].

وفي التَّعبير بالدُّعاء هنا تصويرٌ لجهنَّم في صورةِ مُضيف يَدعو ضَيْفَه، ويجتذِبه إلى مأدبة الإكرام اجتذابًا، وفي ذلك كنايةٌ عن حَنقها عليهم، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8]، وفي تلك الصّورة تَهَكُّمٌ بهم، فهيَ استعارة مكنيَّة تهكُّميّة، تعبِّر عن مكافأتهم استهزاءً بما كان منهم في الدُّنيا من استهزاء.

بلاغَةُ المَجازِ في إسنادِ الدُّعاء إلى جهنّم:

لجهَنَّم موقفٌ حـانِـقٌ عَـلى الكُفّار؛ يَجْعَلُها تَفْتِكُ بهم

في إسناد فعل الدَّعوة إلى جهنَّم في قول الله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ الدّاعي هم خزَنَتُها، وفي إسنادِ الدُّعاء إلى النّار إسنادُ ما هو للحالِّ إلى المَحلّ، مبالغَةً في بيانِ شدّةِ عذابهم ونكالِهم حتّى كأنَّ جهنّم نفسَها تدعوهُم. هذا بناءً على أنَّ جهنَّم لا تدعو بنفسِها، والأظهر هو أنَّها تدعو بنفسِها كما أخبر الله تعالى في ظاهر الآيةِ، وأحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا.

وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ دعاءَ جهنَّمَ تمثيلٌ وتخييلٌ، وليس دعاءً في الحقيقة، والمعنى: أنَّ مصيرهم إليها.

وفي هذا ذمٌّ شديدٌ لِمَن جمع المالَ فأوعاه، وكَنَزَه ولم يُنفقه في سبُل الخير، أو لم يُؤدِّ زكاته[3].

علَّةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾:

الموصول يُفسِحُ العبارةَ لدِلالاتِ الصِّلة، ويتميَّز بإفادة العمومِ وجَمْعِ أفرادِهِ

إيثارُ التَّعبير بالموصولِ ﴿مَنْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ على الاسم الصَّريح كالكافرين أو المجرمين مثَلًا؛ يُهَيِّئ لِذكر جُمْلة الصِّلة ومعطوفِها ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بكلِّ ما فيها من إشاراتٍ دالَّةٍ في السّياق، والاسمُ الصَّريح لا يُعطي ذلكَ كُلَّهُ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 348.

(3) الشوكاني، نيل الأوطار: 5/ 348.

كذلك التَّعبير بالموصولِ يُحَقِّق دلالةَ الشُّمول لجميع الكافرين والمنافقينَ، وغيرِهم من أهلِ الخُلود في النّار. وكما أنَّ في التَّعبير بالموصولِ كذلك إيجازًا ولكلِّ هذه الأصنافِ في لفظٍ يسيرٍ؛ إذ إنَّ تَعدادَ أصنافِها يُخْرِجُ النَّظمَ الكريم من دائرة الإيجاز البليغ.

دلالةُ التَّعبير بالإدبارِ والتَّولّي، ولطيفةُ الجَمْعِ بينهما وتقديمِ الإدبارِ:

الإدبار: تركُ شيءٍ في جِهَةِ الوراء؛ لأنَّ الدُّبُر هو الظَّهْر، فأدبَر: جعلَ شيئًا وراءه بأنْ لا يُعَرِّجَ عليه أصلا، أو بأنْ يُقبل عليه ثُمَّ يُفارقُه. والتَّوَلّي: الإدبارُ عن شَيْءٍ والبُعْدُ عنه، وأصلهُ مشتَقٌّ مِن الوَلايَة وهي المُلازمة.

الإدبـار والتّـولّي مِـن آثـار ديـن الشِّرك

ثُمَّ قالوا: ولَّى عنه؛ أرادوا اتَّخذ غيره وليًّا؛ أي: ترك ولايته إلى ولاية غيره، مثل ما قالوا: رغِبَ فيه ورغِبَ عنه، فصار (ولَّى) بمعنى: أدبر؛ ففي التّولّي معنى إيثارِ غيرِ المُتَوَلَّى عنه؛ ولذلك يكونُ بين التّولّي والإدبار فرقٌ، وباعتبار ذلك الفرقِ عُطِف (تولَّى) على ﴿أَدْبَرَ﴾؛ أي: تدعو مَن ترك الحقَّ وتولّى عنه إلى الباطلِ. وهذه دقيقةٌ مِن إعجاز القرآن بأن يكونَ الإدبارُ مرادًا به إدبارٌ مِن أوَّل وهلة، ويكون التّولّي مرادًا به الإعراض بعد مُلابسَةٍ، ولذلك يكون الإدبارُ مستعارًا لِعَدَم قبولِ القرآن، ونفيِ استماع دعوة الرَّسول ﷺ، وهو حالُ الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فُصِّلت: 26][1].

والمقصودُ أنَّ الإدبار والتّولّيَ كان منهم في الدُّنيا، فمعنى ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن طاعةِ اللّهِ، وتوَلَّى عن الإيمانِ بكتابهِ وبرسلِه[2]، أو أدبر عن توحيده، وتولّى عن النَّظر في حُجَّته، وفيما جاء مِن عنده. ومن معاني (تَوَلَّى) أي: تولّى الشَّيطانَ؛ مأخوذٌ مِن الوَلاية[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 264.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 203.

وهؤلاءِ المُدبِرون المُتَولّون "هُم المجرمون الّذين يَوَدّون أنْ يَفتدوا من عذاب يومئذٍ. وهذه الصِّفات خصائصُ المشركين، وهي مِن آثار دين الشِّرك الّتي هي أقوى باعثٍ لَهُم على إعراضِهِمْ عَن دَعْوَةِ الإسلام"[1].

وقُدِّمَ الإدبارُ على التّولّي من بابِ تصعيدِ الدّلالَةِ؛ فإنَّ الإدبارَ إعراضٌ عن الحقِّ، وفي التّولّي معنًى زائدٌ على ذلك وهو الرّكونُ إلى الباطِلِ بعد الإعراضِ عن الحقِّ. كما أنَّ في تأخير (تولّى) عن ﴿أَدۡبَرَ﴾ تحقيقًا لتناسُبِ فواصلِ الآي الكريمةِ.

بلاغةُ الاستعارَةِ في الفِعْلَيْنِ: ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾:

إجماعُ المُشركين كـلِّـهـم عـلى الإدبار والتّولّي

التَّعبير بـ ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تتَّسع دلالَتُه لِمَن أدبر وتولّى هُنالِكَ في الآخرة في ذلكَ المقام الخطير، ولمن أدبَر وتولّى هنا في الدّنيا؛ فأدبَرَ عَن قبولِ الدّين القويم، وتولَّى عن الحقِّ.

وعلى المعنى الأوَّل؛ "يكون أدبَر في جهنَّم، فيُدْبِرُ رجاءَ أن يَفِرّ عنها، ويتولّى؛ فلا تدعه النّار ليَفِرّ؛ بل تغشاهُ عَنِ الإعراض"[2].

وعلى المعنى الآخر؛ تكون في جُمْلَتَي ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ استعارتانِ تَمْثيليَّتان، تُصَوِّران حالَ رَفْضِ الكافر الإيمانَ باللّه تعالى وعدمَ قبولِ الإسلام بحالِ مَن يُعرض عمَّن يدعوه إلى شيءٍ، ويولّي عنهُ ويَفِرّ منه متولّيا غيرَه؛ كراهيةَ قبول ما يدعوه إليه؛ وهي استعارةٌ تَطوي خلْفَها مَعْنًى كنائيًّا؛ هو تمامُ الرَّفض، وكمالُ البُغض لهذا الدّين الحقِّ ورسوله ﷺ.

فـ "التّولّي مستعارٌ للإعراضِ عَنِ القرآن بعدَ سَماعِه، وللنُّفور عن دعوةِ الرَّسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31]، وكلا الحالَيْنِ حالُ كُفْر، مُحِقّةٌ للعقاب، وهما مُجْتَمِعتانِ في المشركينَ جميعِهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.

دلالَةُ اتّحاد متعلّق الفِعْلَيْن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾:

العِبرة في التَّركيب باختلاف معاني الأفعالِ وإنْ كان متعلّقُها متَّحِدا

يتعلَّق كلٌّ مِنَ الفِعْلَين ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بمتعلَّق محذوفٍ، والتَّقدير: أدبَرَ عَنِ الحقِّ وتولّى عنهُ، أو: أدبَر عن جهنَّم وتولّى عنها. وفي عَطْفِ التّولّي على الأدبارِ تأكيدٌ لمعناه، وتقريرٌ لخُطورَةِ المُدْبَر عنهُ والمُتولَّى عنهُ في الآخرة، وشدّة بُغْضِ المدبِر المتولّي وشدَّة استهزائِهِ بالدّين الحقّ في الدّنيا، و"العِبرة باختلاف معنَيَي الفعلين وإنْ كان متعلّقهما متَّحِدا.

ويجوز أنْ يُقَدَّر لكلِّ فعلٍ متعلَّقٌ؛ هو أشدُّ مناسبَة لِمعناه، فقدَّره البيضاويُّ: أدبر عن الحقِّ وتولى عن الطّاعة؛ أي: لم يَقبل الحقَّ – وهو الإيمانُ – مِن أصلِه، وأعرضَ عن طاعة الرَّسول ﷺ بعد سماعِ دَعْوَتِه. وعن قتادةَ عكسُه: أدبر عن طاعةِ الله تعالى، وتولَّى عن كتاب الله تعالى، وتبعه الفخرُ والنّيسابوريُّ"[1].

دلالة التَّعبير بِفِعْلِ الجَمْعِ في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

الكافرُ يجمع في خزائنِهِ المالَ، وفي قلبِهِ الكُفْرَ والأحقادَ على الإيمانِ وأهلِه

الجَمْعُ في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يعني: الضَّمّ؛ أي: أنَّ ذلك الكافر الّذي أدبر وتولّى؛ كان همّه ضمَّ المالِ بعضِه إلى بعضٍ، وكَنْزَهُ، وعدَمَ بذلِه لمستحقّيه. وعَطْفُ فعلِ الجَمْعِ على فعلَي: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يُرجِّح كونَ المقصود بها ما كانَ في الدُّنيا مِن إدبار عن الدّين وتولٍّ عن الحقِّ، واكتناز المالِ كأنَّه يأمَلُ في الخُلود.

والتَّعبير بالجَمْعِ معَ حذف مفعولِهِ؛ يُفسِح لإرادةِ أنَّه جَمَع أعراضَ الدُّنيا الزّائلة، واكتَنَزَها، ولَم ينفِق منها على المُحْتاجينَ، كما يُفْسِحُ لإرادَةِ أنَّه جَمَعَ العقائدَ الباطلة، والأحقادَ الدَّفينة الّتي يوعيها قلبُ الكافر، ولا يَتَطهَّر منها بالإخلاصِ لله تعالى.

والوعاء: الظَّرف؛ أي: جَمَع المالَ فكنَزَه ولم ينفع به المَحاويجَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.

ومنه جاء فعلُ ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ إذا شحَّ. وفي الحديث الشَّريف أنَّه ﷺ قال لأسماءَ رضي الله عنها: "تَصَدَّقي ولا توعي؛ فَيوعَى عَلَيْكِ"[1]؛ أي: لا تُحصي[2].

بلاغة الكِنايَةِ في الفعل (جَمَعَ):

مـلازَمـةُ الكـافرِ لِـخـصـالِ الـخَـبـائـث، واستمرارُهُ عليها

في التَّعبير بفعل الجَمْعِ (جَمَع) كنايةٌ "عمّا جُبِل عليه من شِدَّة الحرص على الدُّنيا؛ فيكون الجَمْعُ كنايَةً عَنِ الحرص، فبلغ بهِ هذا الحِرْصُ مبلغًا أنساه ذِكْرَ الآخرة، وقوله ﷻ: ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ فيه بيانُ صِفَتِه فيما عليه من النِّهاية في البُخْل، فيكون الإيعاءُ كنايةً عَنِ البُخْل حتّى لم يُؤَدّ حقَّ الله تعالى في مالِه، أو لَم يَقُم بِشُكْر ما لله تَعالى مِن النِّعم، أو بلغ بهِ البُخْلُ مبلغًا مَنَعَهُ ذلكَ عَن قَبولِ حقِّ الله تعالى في مالِهِ"[3].

كما أنَّ في الفعلِ (أوْعى) "إشارةً إلى طولِ الأمَلِ. وعَن قتادة: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾: كان جَموعا للخبيث، وهذا تفسيرٌ حسنٌ؛ أي: بأن يقدَّر لـ (جمع) مفعولا يدلُّ عليه السّياقُ؛ أي: وزاد على إدبارِهِ وتولّيه أنَّه جمعَ الخبائث. وعليه يكون ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ مستعارًا لمُلازمَتِه ما فيه مِن خصالِ الخبائث، واستمراره عليها، فكأنَّها مختزنة لا يُفَرِّط فيها[4].

دلالَةُ التَّعبير بالإيعاء، وبلاغةُ الكنايَةِ في ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾:

الإغـــراقُ في البُخلِ إلى حدِّ مَنْعِ حُقوقِ الله تعالى وحقوقِ عبادِهِ

أصلُ كلمة "الإيعاء" مِن الوعاء، فيُقال: أوعيتُ الشَّيء؛ أي: جعلتُه في وعاءٍ، وقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: يجمعون في صُدورهم مِن الشِّرك والتَّكذيب[5]، ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: "أمسكَهُ في الوِعاء، ولَم يُنْفِقْهُ في طاعةِ الله، فلم يُؤَدِّ زكاةً، ولا وصَلَ رحمًا"[6]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (2590).
(2) ابن حجر، هدي الساري، ص: 206.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 353.

وجَمَعَ الأمتعةَ والأموالَ في أوْعيَتِها، ولَم يكُنْ مُفَرِّطًا في دُنْياهُ، بل كانَ شديدَ الحِرْصِ عليها[1].

فكأنَّه "جعله في وعاء؛ حفظًا له ومنعًا لحقِّ الله منه، قال قتادة: فكان جموعًا مَنوعًا"[2]، "وتشاغل به عن الدّين، وزَها باقتنائه وتَكبَّر"[3].

و"الإيعاءُ كنايةٌ عن البُخْلِ حتّى لم يُؤَدِّ حقَّ الله تعالى في ماله، أو لم يَقُمْ بِشُكْرِ ما لله تعالى من النِّعم، أو بلغ به البُخْلُ مبلَغًا منَعَهُ ذلكَ عَن قبولِ حقِّ الله تعالى في مالِهِ"[4].

نُكْتَةُ العُدول عن (الواو) إلى (الفاء)، والقَرْن بين الفعلين ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

في العدولِ عن (الواو) التي تكرّرت في ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ﴾ إلى (الفاء) في ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ دلالةٌ على الحرص الشَّديد على إخفاء نِعَم الله تعالى عليه، وهو المدلولُ عليهِ بِسُرْعَة (الفاء) المفيدةِ عدمَ تركِهِ ما جَمَعَهُ مكشوفًا أمامَ الأعين، بل يطويه ويُخَبِّئه ويحويه في وعاءٍ مُحْكَم، وكذا ما أوعى في قلبهِ مِنَ الكُفْرِ والحِقْدِ على الدّين، وربَط عليه أوعيةَ نفسِه وقلبِه.

شـــدَّةُ حـرصِ الـكـافـرِ عـلى إخفاءِ نِعَمِ الله تعالى عليه

نكتةُ تَرْتيبِ الأفعال في قوله: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

في ترتيب الأفعال في قوله: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ "إشارةٌ إلى كفّارٍ أغنياء جعلوا جَمْعَ المالِ أوْكدَ أمرِهم، ومعنى حياتِهم، فجمعوه من غيرِ حلٍّ، ومنعوهُ من حقوقِ الله، وكان عَبْدُ اللهِ ابْنُ عُكَيْمٍ لا يَرْبِطُ كيسَهُ، ويقول: سمعتُ اللهِ تعالى يقولُ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾"[5].

طريقةُ الكفّار جَمْعُ المالِ مِن غيرِ حِلٍّ، ومنعُ حقِّه مِنه

نكتةُ الجَمْعِ بين الإعراض عن الإيمانِ والإمساكِ عنِ الإنفاق:

في الجمع بين الإعراضِ عن الإيمان باللّه تعالى، والإمساك عن

شناعَةُ البُخْلِ وبشاعَتُهُ

(1) الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 4/ 325.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 94.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 611.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.

الإنفاقِ في سبيل الله ﷻ؛ إشارةٌ إلى شناعة البُخْل، وأنَّه يُقارِبُ الكُفْرَ، وهذا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقّة: 33 - 34][1].

دِلالَةُ المُضيِّ في الأفعالِ الأربعَةِ: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

الإدبارُ والتّولّي والجمعُ والإيعاءُ أخلاقٌ ذميمَةٌ مُتأصّلة في الكافِر

في التَّعبير بصيغَةِ الماضي المُتتابِعَة في الأفعالِ ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ دلالَةٌ على القَطْعِ بتِلْكَ القَبائحِ في الكافر المُسْتَهْزِئ بالوعيد، الوادِّ افتداءَ نفسِه بكلِّ شيء، وقِدَمِها، ورسوخِها فيه خُلُقا ذميمًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّظى والسَّعْر:

اللَّظَى: اللهبُ الخالص، و(لَظَى) من أسماءِ جهنَّم، لا يُنَوَّن لأنّها علمٌ علَيْها، وكذلك سَقَرُ: علمٌ عليها، وأسماءُ الإناثِ لا تُصْرَفُ في المعرفةِ؛ فَرْقًا بين الذكَّر والأنثى. ولَظيَتِ النّارُ تَلْظَى لَظىً؛ معناه: تلزَقُ لُزوقًا. والحَرُّ في المفازة يَتَلَظَّى؛ كأنّه يلتَهب التِهابًا[2]، والسَّعْرُ اشتعالُ الشَّيء واتِّقادُه وارْتِفاعُه. مِن ذلك: السَّعير؛ سعيرُ النّار –، واستعارُها: توقُّدُها. والمِسْعَر: الخشَبُ الذي يُسَعَّرُ به[3].

اللَّظى اللهبُ الخالص، والسَّعْرُ الاتِّقاد والاشْتِعال

الدُّعاء والنِّداء:

الدُّعاءُ أعمُّ مِن النِّداء مُطْلقًا، وذلك أنَّ النِّداءَ هو رفعُ الصَّوْتِ بما لَهُ مَعْنًى، بخلافِ الدُّعاءِ فيكونُ برفْعِ الصَّوْتِ وخَفْضِه، فتقولُ: دَعَوتُ فلانًا مِنْ بعيدٍ، وتَقولُ: دعوتُ اللّهَ تعالى في نَفْسي، ولا يَصِحُّ أن تقولَ: نادَيْتُ اللّهَ في نَفْسي[4].

النِّداء أخصُّ من الدُّعاءِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (لظى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.

الإيعاء والحفظ:

الإيعاءُ: حفظ الأمتعة في الوعاء[1]، وما يجمعون في الصُّدورِ من التَّكذيب والإثم[2]. والحفظُ: المنعُ، تقول: حفظتُ المالَ وغيرَهُ حفظًا؛ إذا منعتَهُ مِنَ الضَّياع والتَّلف، وحفظتُه: صُنْتُه عنِ الابتذالِ، واحتفظتُ به، والتَّحفُّظ: التَّحرُّز، وحافظ على الشَّيءِ محافظَةً، ورجلٌ حافظ لدينهِ وأمانَتِه ويمينهِ، وحفيظٌ أيضًا، والجمعُ: حفظَةٌ، وحُفّاظ[3].

الإيعاء الحفظُ في وعـــاءٍ، والحِفْظُ الإحرازُ مُطْلَقًا

(1) أبو البقاء، الكليات، ص: 224.

(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (وعى).

(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (حفظ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"